المحاضرة الثالثة

التحليل النفسي للفن1

أولا : التحليل النفسي عند سيغموند فرويد:

لاشك أنّ المنهج النفسي يستمد آلياته النقدية من نظرية التحليل النفسي الذي أسسها الطبيب النمساوي "سيغموند فرويد"، (1856-1939م) ، والتي فسّر على ضوئها الانفعالات و الأحاسيس و السلوكات البشرية ، كما يعتبر أوّل المنظّرين لنظرية التحليل النفسي، بل يُعد "زعيم مدرسة التحليل النفسي ، والرائد في هذا المجال ، و إن كانت الريادة لا تخلوا أحيانا من مزالق و نقائص إذ استطاع أن يرسم للجهاز النفسي الباطني خريطة أشبه ما تكون بالخرائط لطبوغرافية. حيث قسمه إلى ثلاث مستويات تمثل الثالوث الدينامي للحياة الباطنية الإنسانية. المستوى الشعوري (conscient)، ما قبل الشعور (pkeconscirce)، اللاشعور (inconscience)، وهذا المستوى الأخير هو الفرضية الأساسية التي تقوم عليها نظرية التحليل النفسي".

1- مناطق الجهاز النفسي عند سيغموند فرويد :

لقد قسم فرويد النفس البشرية إلى ثلاثة مناطق و لكل منطقة وظيفة ومضمون و أثر تتمثل فيا يلي:

1-1 الأنا: وهو الجانب الظاهر من الشخصية و هي شعورية ، أي أن مكوناتها تكمن في الشعور بها أو بآثارها ، و هي منطقة خلقية.أي تميل إلى أن تكون تصرفاتها في حدود المبادئ الخلقية التي يقرّها عالم الواقع ، وهي تتصل بعالم الواقع لتحقيق النزاعات الغريزية بالصورة التي تراها خلقية معقولة وهي تغفل في أثناء النوم. كما يتجلى عملها أيضا التوفيق بين الهو والعالم الخارجي من جهة ،والهو والأنا الأعلى عندما تكون من جهة ثانية.

1-2 الأنا العليا: أو الذات العليا: وهو قوة قاهرة رادعة، وهي مجتمع العادات و التقاليد التي تتكون عند الإنسان منذ طفولته و هي لا تكف عن قول (احذر ، مكانك، إياك...). وما شاكل ذلك من الأوامر و التعليمات و الزجر و التوبيخ فهي الناقد الخلقي الأعلى الذي يشعر الأنا بالخطيئة".

1-3 الهو: وهي منطقة قوة جموع ، تجتمع فيها الغرائز و الشهوات التي تزين الهوى ، وهي لاتتجه وفق المبادئ الخلقية ، وإنما تسير على قاعدة تحقيق اللذة و الابتعاد عن الألم ، وهي لا تتقيد بقيود منطقية، و من مركباتها النزعات الفطرية الوراثية المكبوتة ، و أهم هذه المركبات بحسب فرويد-النزعة الجنسية.

2-عقدة الغريزة الجنسية عند فرويد: يرى "فرويد" أن ما يصيب النفس البشرية من عقد نفسية و انفعالات لا إرادية جميعها يرجع إلى الغريزة و من أبرزها عقدة أوديب وهي أسطورة يعلق عليها (أريك فروم) ، بقوله: "يجب أن نفهم أسطورة أوديب لا على أنها رمز لاتحاد محرمها بين الأم و ابنها، بل أنها ثورة الابن على سلطة الأب في الأسرة الأبوية ، فما زواج أوديب من جوكاستا إلا واحد من رموز أنصار الابن الذي استولى على مكان الأب و على جميع الامتيازات المترتبة عليه." ويعني ذلك ميل الذكر إلى أمه ميلا جنسيا يجعله يغار من أبيه و قد يحقد عليه ، لأنه يأخذ هامته ، وهذا ما يؤدي بالابن في التفكير في قتل أبيه.

3 ـــ عقدة إلكترا: وهي عكس العقدة السابقة و تعني ميل البنت إلى أبيها ميلا جنسيا يجعلها تغار من أمها ، و قد تحقد عليها تعتقد أنها قد أخذته منها.

4 ـــ العقدة النرجسية: وهي حب المرء لنفسه جنسيا.

أما الفائدة المحققة التي يمكن كسبها من نتائج التحليل النفسي فائدة يحققها الناقد لا الفنان . وهو يحققها عندما يستفيد في تلك النتائج في إلقاء مزيد من الضوء على العمل الفني و استكشاف أبعاد التجربة أو التجارب التي يقدمها ، و تفسير الدلالات المختلفة التي تكمن وراء الأعمال الفنية."

ثانيا- ألفريد أدلر: (1870-1938) : كان ذا بنية هزيلة ضعيف في صفه ،هُدد بتحويله إلى تعلم مهنة ،فاندفع إلى العلوم إلى أن تخرج طبيبا سنة 1895 ،تعرف على فرويد سنة 1901 ،والذي كان يبحث في تحليل أعراض الهستيريا ،وهذا ما شوّق "أدلر" وأثار اهتمامه .لكنه لم يلبث حتى انشق عنه بعد عام واحد فقط. لقد كان تكوينه الجسدي الضعيف له علاقة بنظريته في التعويض والشعور بالدونية ، وقد اختلف أدلر مع استاذه فرويد في رؤية القوة الدافعة للإنسان ،إذ يرى "أدلر" ان القوة والرغبة والتفوق جاءت كتعويض عن النقض ،وليس الرغبة الجنسية ،ويرى ادلر أيضا ان سلوك الانسان يتحدد في السنوات الأولى للطفل ،وان هذا الأخير يعاني من الشعور بالنقص والدونية ؛ولا سيما عندما يرى أنه أضعف من الكبار جسميا وعقليا ،ويستجيب لذلك بالكفاح من أجل التفوق والسمو، كتعويض لشعوره بالعجز .وتوصل أدلر في البداية أن القصور أو النقص هو عضوي فقط، ثم عدل رأيه وأضاف ما أسماه بالدونية النفسية والاجتماعية..." .

فضلا عن ذلك خالف" أدلر" أستاذه "فرويد" صاحب مدرسة علم النفس التحليلي في أن تكون الغريزة الجنسية السبب الوحيد لظهور الأمراض العصابية ،والباعث الأول على الفن ، ورأى أن الشعور بالنقص هو السبب الرئيس في نشأة العُصاب ،وان الباعث الأساسي على الفن هو غريزة "حب الظهور او حب السيطرة والتملك".

ولعل الشيء الذي يميّز نظرية "أدلر" اهتمامه بالجانب الاجتماعي ؛فالدوافع اللاشعورية في تصوره ،لا يمكن أن تقدم بمفردها فهما مكتملا للطبيعة البشرية ؛إذ لا بد من تفاعل عالم الشخصية الباطني بالعلاقات الشيئية الموضوعية ،وبخاصة العلاقات الاجتماعية ؛لان الفرد في نظره ليس كائنا معزولا عن وسطه الاجتماعي ،يتصرف بما يمليه عليه نزوعه الفردي ودوافعه اللاشعورية ...بيد أنه لم يُحدث اهتمامه بالجانب الاجتماعي انقلابا في حركة التحليل النفسي."

1- الشعور بالدونية وأسبابه في علم النفس الفردي عند أدلر:

الشعور بالدونية يجب أن يزول ويصفى مع نمو الشخصية للطفل إنه يزول اذا كانت حاجة اثبات الذات قد اشبعت بطريقة إيجابية .أما في حالة عدم الزوال ،فإن الشعور هذا الشعور يتبلور ويصبح عقدة ، وبهذا يأتي مفهوم التعويض لحل هذه المشاكل ، كما هو الكبت عند فرويد .ويمكن أن نحصي أسباب هذا الشعور في النقاط الآتية:

- يصبح التعويض مشكلة المشاكل عند الطفل المصاب بنقص عضوي ،بدونية تكوينية ،أي في قسم ما من بدنه .فهنا تبحث العمليات اللاوعية ،وهي فيزيولوجية ونفسية في الوقت ذاته، عن إيجاد توازن عن التعويض لهذا النقص، عن إقامة ملاءمة بين صاحب العاهة وبين المجتمع.
- قد تنجم عن تربية فاسدة (أب أو أم متسلطة، أهل يقارنون ابنهم بأولاد متفوقين وعلى منه ...)
- قد تنتج عقد النقص عن وضعية اجتماعية (ولد فقير في بيئة تتطلب منه وضعا اقتصاديا ـــ أو طبقيا أو عائليا ـــ معينا ،ولد يتيم ،ولد لقيط...).

قد ينشأ هذا الشعور من وضع عائلي :ولد غير مرغوب فيه، ظهور أخ جدي أو أخت جديدة،يأخذ منه مركزه أو اهتمام العائلة به.وهنا تتكون خطة الحياة ،أو الأسلوب في الحياة عند الانسان إبان طفولته وانطلاقا من بيئته العائلية وشعوره بالنقص ورغبته بالقوة".

ثالثا - الإبداع الأدبي في ضوء التحليل النفسي الفرويدي:

لقد أقرّ مؤسس علم النفس التحليلي (سيغموند فرويد) بقوة التمكين التي يصنعها الأدباء في ميدان خلق الإبداع تحت مظلة علم النفس، وأنّ الأعمال الفنية الخالدة هي التي تثير جوانب من النفس الإنسانية بشكل تلقائي وصادق، يقول فرويد في هذا الشأن "إن الشعراء والروائيين هم أعزّ حلفائنا، وينبغي أن نقدر شهادتهم أحسن تقدير، لأنهم يعرفون أشياء بين السماء والأرض لم تتمكن حكمتنا المدرسية من الحلم بها، فهم في معرفة النفس شيوخنا ،نحن الناس العاديين، لأنهم ينهلون من ينابيع لم يتمكن العلم بعد من بلوغها". بمعنى أنّ ثمة عناصر مشتركة بينهما، فهما يتناولان موضوعات واحدة، كالخيال والتخييل والمشاعر والعواطف وغيرها. وقد أكد فرويد بالجمالية الإبداعية والفنية التي خلّفها الفلاسفة والشعراء والفنانون، وهم من ساهموا في بناء نظريته الخاصة بالتحليل النفسي ؛ لأنّ الإبداع في نظره "على اختلاف أنواعه وأشكاله ،هو الرحم الذي يحتضن النفس الإنسانية بحالاتها ومتناقضاتها كافة. فغالبا ما تكون الظاهرة غُفلا في الحياة أو الطبيعة إلى أن يُقيّض لها رجل عبقريّ ،يخرجها للناس في صورة مشروع أو قانون أو نظرية أو تجربة".ومن هنا يمكن القول إنّ العلاقة بين الأدب وعلم النفس لا تحتاج إلى كثير من الإثبات، كما يبيّن ذلك عزّ الدين إسماعيل في كتابه "التفسير النفسي للأدب "؛ فالأدب يُعد صدى النفس الإنسانية وترجمانها، وهو تعبير عن التجارب التي تختزنها النفس البشرية. "وكلّ ما تدعو الحاجة إليه، في هذا السياق هو بيان هذه العلاقة وشرح عناصرها ،وان النفس تصنع الأدب ،وكذلك يصنع الأدب النفس".

ويرى (سيغموند فرويد) أيضا أنّ ثمّة تشابها واضحا بين الحلم والإنتاج الشعري، من حيث كليهما ينبع من مخزون اللاشعور، ويستند إلى الخيال والتخييل. وبما أنّ الحلم يُعد بالضرورة حاملا لرغبات اللاشعور، فإن الأثر الأدبي والفني كذلك ينطوي على معان ودلالات عميقة، ويعبر عن مشاعر وتناقضات أو صراعات نفسية خفية ،تتستر غالبا وراء مكنونات وتركيبات وأقنعة ظاهرة خارجية ،تكون علاقتها بالداخل الخفي ،كعلاقة الوعي والإدراك باللاوعي والتخييل أو الحلم .

ومن هذا المنطلق فإنّ منهج التحليل النفسي في دراسة الأدب ،هو منهج يهدف بالدرجة الأولى إلى إزالة هذه الأقنعة الرمزية ،والكشف عمّا تختزنه من دلالات نفسية مضمرة. أما نظرة فرويد إلى الشاعر أو الفنان أو الأديب فيراه "إنسان محبط في الواقع، لأنه يريد الثورة والقوة والشرف وحب النساء ،لكنه تنقصه الوسائل لتحقيق هذه الاشباعات ومن ثمّ يلجأ إلى التسامي بهذه الرغبات وتحقيقها خياليا"، إما عبر التعبير الشفهي أم عبر الكتابة .

يرى فرويد أن الفن تعويض عن الإحباط ،وتسام بالغرائز المقموعة ؛فإذا ليوناردوده فنشي،في نظره ،يصدر في فنه عن انحراف جنسي دفين ،وعن عقدة أوديبية جعلت وجوه شخوصه تحمل قسمات أمه ،,إذا الفنان ينطلق من نرجسيته ليتكامل أخيرا في عمله الموجه إلى الآخرين ،فيستعيد شيئا من توازنه النفسي؛هذا التوازن يدعم رأي المحللين القائلين إن نرجسية المبدع ليست في الحقيقة حالة مرضية ؛لأنها تقود صاحبها إلى التواصل الطبيعي مع الآخرين ،وتقيه السقوط فريسة سهلة للعصاب؛ وقد أخبرنا فرويد في كتابه "حياتي والتحليل النفسي" كيف أن الفنان الأصيل يخرج من عالم الخيال والاحلام ،ليعود فيضرب بقدم ثابتة أرض الواقع ؛وهكذا يكون الفنان قادرا على الحلم وهويقضان، فلا يتسلط عليه الموضوعي،إنما يسيطر هو على موضوعه".

ثالثا ـ التلقّي الأدبي من منظور التحليل النفسي عند فرويد

يُعد القارئ في نظر فرويد شريكا مهما في إنتاج المعنى، وهذا في إطار نظرية التحليل النفسي، إذ يرى المبدع يشيّد لنفسه عالمًا تخييليًا خاصًا، ويقدّمه إلى القارئ في قالب فنّي ينطوي على عناصر الإغراء والتحفيز، بما يدفعه إلى قراءة العمل الأدبي والتفاعل معه والاستمرار فيه. وبذلك تتحقّق المتعة الجمالية دون أن يشعر المتلقّي بالحياء أو بالذنب؛ إذ تُلبَّى رغباته المكبوتة بصورة رمزية ومقبولة اجتماعيًا.

ولا تتحقّق متعة التلقّي، في هذا السياق، إلا بوجود نوع من التوافق أو التجاوب النفسي بين المبدع والمتلقّي، يقوم على اشتراكهما في خبرات إنسانية ومواطن وجدانية متشابهة، ممّا يسمح للقارئ بإسقاط رغباته ومشاعره على العمل الأدبي، ومن ثمّ الانخراط في عالمه التخييلي بوصفه امتدادًا لعالمه النفسي الداخلي.